الملك العالم والنهضة العلمية

obeikandl.com

obeikandl.com

الملك العـــالم

قال لي أحد المطلعين إنه لما توفي الملك فؤاد كانت مكتبته الخاصة تتألف من سبعة عشر ألف مجلد وكتاب وهي غير مكتبة القصر

وكان جلالته مشتركاً في طائفة كبيرة من أشهر الصحف والمجلات الغربية ، وعلاوة على ذلك كان يتلقى قصاصات بجميع المقالات والأخبار التي تنشر عن مصر في جميع أنحاء العالم

ولم تحل مهام الملك ومشاغله في وقت ما دون إكبابه على الاطلاع ، فقد كان دائماً شغوفاً بزيادة معلوماته وتوسيع دائرة معارفه ، وهي سجية العالم الحقيقي

سمعت مرة من معالي أحمد محمد حسنين باشا أنه بينما كانت الأذهان مشغولة بأزمة وزارية داخلية قرأ جلالته فى مجلة إنجليزية تحت صورة طير نادر الوجود أن هذا الطير لا يعرف إلا في أستراليا ونيوزيلندا فدعا إليه معاليه وكلفه أن يكتب إلى تلك المجلة كتاباً يقول لها فيه إن الطير الذي نشرت صورته يوجد منه في مصر كذلك

وعلمت فيما بعد من المرحوم اللواء أحمد شفيق باشا — وكان يومئذ مديراً عاماً لمصلحة الحدود — أنه لما تشرف يوماً بمقابلة جلالته استأذن منه في أن يعرض عليه نوعاً غريباً من الطير عثر عليه في خلال طوافه فى الصحراء الغربية فأذن له جلالته فى ذلك فحمل إليه سعادته ذلك الطير فسره أن يراه ، وسأل

شفيق باشا هل رأى مثله في حديقة الحيوان بالجيزة ، فأجاب سلباً فأمره بإرساله إليها وحفظه فيها

و بعد مدة طويلة كان جلالته يتصفح تلك المجلة الإنجليزية فوقع نظره على صورة الطير الذي قيل إنه لا يوجد إلا في استراليا ونيوزيلندا ، فتذكر الطير الذي عثر عليه اللواء شفيق باشا فقرر أن يكتب إلى المجلة لتصحح خطأها

* * *

ولم يكن الملك فؤاد يقتصر على المطالعة وحدها في الاستزادة من العلم والمعرفة بل كان إذا اتصل بمسامعه أن في البلاد زائراً من العلماء الأجانب أرسل يدعوه إلى مقابلته فيقف منه على أحدث الآراء أو النظريات أو المعلومات في العلم الذي تخصص فيه فيضيفها إلى ما يكون قد عرفه قبلاً عن ذلك العلم أو الفن

ومما أذكره بهذه المناسبة أنه لما زار العالم الهندي الشهير السر جاجاديس بوز مصر والتمس من وزير الزراعة المصرية تقديمه إلى الملك طلب جلالته أن يشاهد بعض تجاربه ، فقال جنابه لرجال القصر إن هذه التجارب تقتضي استعداداً خاصاً في الجهاز الكهربائي في القاعة التي تتم فيها المقابلة ، فكان جواب جلالة الملك إن القصر ورجاله في خدمة العلم وأربابه

وفعلا ذهب السر جاجاديس إلى القصر قبل موعد المقابلة بساعات وأعد جميع المعدات اللازمة لتجاربه حتى إذا أزفت ساعة المقابلة كان على استعداد تام لإجرائها أمام المليك العالم

وفي شهر يناير سنة ١٩٢٩ مرَّ بمصر السر دنيسن روس المستشرق الإنجليزي الكبير في طريقه إلى إيران ، وكان جنابه من أكبر الخبراء العالميين في كل ما يتصل بتاريخ الحروف والكتابة وتصادف في ذلك الحين أن كان الملك فؤاد مهتماً بالمشروع الذي أفضى إلى ابتكار حروف التاج فاستقبل السر دنيسن واستبقاه في حضرته ساعة ونصف ساعة

وأخبرني السر دنيسن أن الملك حدثه عن فكرته ، وسأله عن رأيه فيها فاستحسنها وأكد له إمكان تنفيذها بسهولة ، ثم قال « وقد عرضت على جلالة الملك طريقة استنبطها بعد بحث وتجارب طويلة لكتابة حروف كبيرة (ماجسكول) في اللغة العربية فتفضل بالاطلاع عليها وعلى تفصيلها ، ولما فرغت من بسطها لجلالته أبدى إرتياحه إليها واقترح عليّ أن أقدمها في المسابقة التي أعلنت عنها الصحف في هذا الصدد »

وأردف السر دنيسن ما تقدم بقوله « ولكن حذار وحذار ألف مرة أن يخطر لكم تبديل الحروف الهجائية العربية الحالية بالحروف اللاتينية وقد سمحت لنفسي بابداء هذا الرأي في حضرة جلالة الملك فإن الخط العربي جميل ومن الجرم القضاء عليه »[1]

* * *

ولا يزال الذين اتيح لهم أن يصحبوا الملك فؤادا في زياراته المنشآت العامة يذكرون الأسئلة الدقيقة التي كان يوجهها إلى الرجال المختصين فيدهشهم بقوة ملاحظته وشدة استقصائه وغزارة معلوماته

ومن ذلك أنه لما زار مصلحة الإحصاء[2] بلغ من فرط تدقيقه في السؤال عن بعض أجزاء إحدى الآلات التي وقف أمامها طويلا أن الموظف المختص عجز عن الرد على سؤاله مع أنه قضى سنين طويلة في إدارة قسمه فابتسم جلالته ليسري

---

(١) سألت السر دنيسن روس عما كان تعليق الملك فؤاد على رأية فقال أن جلالته شاطره هذا الرأي وأخبره أنه أنشأ مدرسة لتحسين الخطوط العربية

ولما كان الشيء بالشيء يذكر سألت السر دنيسن هل يظن أن الحروف اللاتينية ستعمر طويلا في تركيا — وكنا يومئذ في يناير سنة ١٩٢٩ — فقال « إن المرء لا يستطيع الجزم برأي في مثل هذا الموضوع ولكني لا أرى ما يمنعها من التعمير في تركيا فان الترك لا يتكلمون العربية فلماذا تريدون منهم أن يكتبوا لغتهم بالحروف العربية وأن لا يكتبوها بالحروف اللاتينية ؟ أما أنتم فلغتكم هي العربية فيجب عليكم التمسك بحروفكم الحالية »

(٢) في شهر فبراير سنة ١٩٢٩

عنه وقال له « تبقى تسأل عن هذه المسألة وتخبرني عنها » . وكثيراً ما كان جلالته في أثناء الزيارة يتولى الشرح بنفسه للوزراء وكبار رجال القصر فيتضح لهم أن معلوماته في الموضوع الذي يحدثهم عنه شافية وافية ولا تقل عن معلومات الموظف الإخصائي المختص[١]

وحدث عند زيارة جلالته للجمعية الجغرافية[٢] أن دعي إلى مشاهدة الخارطة الكبيرة المصنوعة من الجبس البارز لتمثل نهر النيل من منبعه إلى مصبه فتأمل فيها جلالته ملياً ثم قال « أظن أن بعض مقاسات هذه الخارطة خطأ » والتفت إلى دولة حسين سري باشا (وكان يومئذ وكيلا لوزارة الأشغال) كمن يسأله عن رأيه في ذلك فأمن على ملاحظته قائلا « إن في الخارطة غلطات فنية يجب اصلاحها فعلا »

ولم يشأ جلالته أن يبتعد عن تلك الخارطة قبل أن يشاهد على مهل كل جزء

---

(١) مما تحسن الاشارة إليه هنا أنه لما عرضت على جلالته الاحصاءات الخاصة بايرادات الدولة ومصروفاتها وقيل إنها كانت فى سنة ١٨٩٠ لا تتجاوز اثنى عشر مليون جنيه فصارت الآن تجاوز ثمانية وثلاثين مليونا قال « الحمد لله وإن شاء الله تصبح سبعين مليوناً »

ومما هو جدير بالذكر بهذه المناسبة أنه أطال بعد ذلك الوقوف أمام كل إحصاء من الاحصاءات الخاصة بمرافق البلاد الاقتصادية فلما همّ بمغادرة القاعة التى عرضت فيها تلك البيانات قال وهو على عتبة بابها « إن مستقبل مصر في هذه القاعة » فلم يخف على الحاضرين ما أراد قوله بهذه العبارة الوجيزة المبنى العظيمة المعنى

وليس أدل على ما كان جلالته يشعر به من اعتزاز بكل أمر يعلي من قدر مصر في نظر الأجانب من أنه لما اطلع في خلال تلك الزيارة على الاحصاءات التي تبين ايرادات مصلحة سكة الحديد المصرية ومصروفاتها نادى وزير المواصلات — وكان عبد الحميد سليمان باشا — وقال له على مسمع من الحاضرين إنه لما استقبل المستر جون روكفلر المثري الامريكي الشهير (نجل روكفلر الكبير) حدثه عن مرافق مصر الاقتصادية ومشروعات الاصلاح التي تجري فيها وأنه استطرد في حديثه معه إلى الكلام عن سكة الحديد المصرية فقال له إن ربحها يتفاوت بين ٧ و٨ في المئة وأنه ليس في جميع بلدان العالم سكة حديد تعطي مثل هذا الربح . قال جلالته « فلما سمع المستر روكفلر هذ الكلام نظر إليّ نظرة المتعجب المندهش »

(٢) فى شهر إبريل سنة ١٩٢٩

من أجزائها وكان نور الشمس قوياً في القاعة فطلب إلى بعض الحجاب إغلاق النوافذ الخشبية ليتمكن من مشاهدتها على ضوء الكهرباء ثم رأى أنه لو صعد إلى منصة مرتفعة لأمكنه أن يراها على منوال أحسن فاعتلى منصة وأخذ ينعم النظر فى كل قسم من أقسام الخارطة الكبيرة على حدة وهو يشير إلى أجزائها الهامة بعصا طويلة جلبوها له خصيصاً لهذه الغاية

وبعد ما تفقد جلالته الأقسام الجديدة في الجمعية الجغرافية أعرب فجأة عن رغبته فى تفقد نظام أقسام السكرتيرية ونظافتها ولم يكن رجال الجمعية يتوقعون زيارته لهذه الأقسام وكأن جلالته أراد أن يأخذهم على غرة ليقف على حقيقة حال الأقسام المذكورة فسار إليها بخطى ثابتة يتبعه وزراؤه ورجال معيته وكان كلما دخل غرفة من غرفها أمر بفتح خزاناتها إلى أن وصل إلى قاعة السكرتيرية الكبرى حيث تحفظ « فيشات » المكتبة فنادى جلالته وزير المعارف بقوله : « لطفي بك »[1] فقال الوزير « أفندم » فقال له جلالته وهو يشير إلى الخزانة التي تحتوي على تلك الفيشات : « افتح أدراج هذا الدلاوب وانظر إلى النظام الذي فيها » فسار الوزير إلى حيث كان الدولاب قائماً وفتح أدراجه فألفى النظام تاماً فيهافقال له جلالته : « ما رأيك ؟ » فقال معاليه : « إنه نفس النظام الذي نستعمله نحن في مكتبة الجامعة » . فابتسم جلالته وقال : « حسن إذن »

* * *

وكان جلالته في خلال تلك الزيارات يبدي دائماً رغبة واضحة في الاستزادة من الاطلاع بنفسه

ففي أثناء زيارته لأقسام المباحث الفنية التابعة لوزارة الزراعة في الجيزة[2]

---

(١) أحمد لطفي السيد باشا

(٢) في شهر أبريل سنة ١٩٢٩

كان كلما دنا من أحد الموظفين الاختصاصيين الواقفين أمام معروضاتهم قال له : « اشرح لي » حتى إذا فرغ الاختصاصي من كلامه طرح عليه جلالته الأسئلة في الأمور التي يعن له الاستفسار عنها ، ولما وصل جلالته إلى القسم الخاص بآفات القطن قال له الموظف الاختصاصي : « إن بعضها لا يستطاع رؤيته بالعين المجردة و إنه لا بد من المجهر (المكرسكوب) لتبين أجزائه » . فقال له جلالته : « دعني أشاهد ذلك » . فأعد الموظف الآلة بسرعة ووضعها أمام المليك فانحنى فوقها ووضع عينه على النظارة وشاهد ما أراد مشاهدته

و بعد ما زار الأقسام الفنية كلها — واستغرقت هذه الزيارة ساعتين إلا ربعاً قضاها جلالته إما ماشياً أو واقفاً — التمس منه وزير الزراعة أن يتفضل بركوب مركبة أعدت له ليطوف بها حقول التجارب المحيطة ببناء الأقسام الفنية فابتسم جلالته وقال : « متشكر ولكنني أفضل أن أمشي إليها مع الحاضرين » وفعلاً فتح جلالته مظلته وأمسكها بيده فوق رأسه وسار في طليعة الجميع إلى الحقول التي دعي إلى زيارتها في وهج الشمس المحرقة وظل ينتقل من حقل إلى آخر ثلاثة أرباع ساعة لم يجلس في أثنائها لحظة واحدة ولم ينقطع في خلالها عن طرح الأسئلة ثم غادر المكان بعد ساعتين ونصف ساعة وأمارات النشاط والارتياح بادية على محياه في حين أن التعب استولى على معظم الحاضرين مع أنهم لم يرافقوه في طوافه كله ولم يتعبوا أعصابهم كما أتعبها جلالته بحصر الذهن و إعمال الفكر إما ليوجه الأسئلة التي وجهها أو ليصغي إلى البيانات التي أصغى إليها

ولما افتتح جلالته رسمياً مصحة فؤاد الأول في حلوان ودخل حجرة الأشعة أخذ الطبيب المختص يشرح له كيفية استعمال الآلة فقال له جلالته : « أريد أن تجربها أمامي » فأتوا بمريض من الذين يعالجون في المصحة ووضعوه أمام الآلة

بعد ما نزعوا ثيابه عن صدره وظهره وأطفأوا الأنوار وأغلقوا الأبواب والنوافذ وأسدلوا عليها ستائر سوداء حتى أمست الحجرة في ظلام حالك وأطلقوا الأشعة على جسم المريض . ثم أخذ الطبيب يشرح للمليك أعراض المرض مما هو ظاهر منها على جسم المريض فكان جلالته ينعم النظر مستقصياً مدققاً قائلا تارة « شايف » وطوراً « مش شايف » إلى أن عدلت الآلة تماماً واستطاع جلالته أن يتابع أقوال الطبيب وشرحه المبني على نتيجة تشخيصه

* * *

أما الذين تشرفوا بمقابلته فكان يبهرهم بسعة اطلاعه وتنوع معارفه وقوة ذاكرته وإحاطته بكل جديد فى العلوم والفنون

سمعت من سعادة الدكتور علي ابراهيم باشا القصة التالية . قال : « يعد الدكتور « ليري » من أكبر الأطباء الاختصاصيين في أمراض الروماتزم في العالم أجمع فلما زار مصر عُين له موعد يتشرف فيه بمقابلة الملك فؤاد فاقتضت مشيئة جلالته أن أصحب ضيفنا الكبير في هذه المقابلة وأبلغوني في القصر أنه عينت لها الساعة الرابعة بعد الظهر . فقلت في نفسي إنها لن تدوم أكثر من ربع ساعة لأنه لا ينتظر أن يتكلم الملك معه عن أمراض الروماتزم . وعملا بهذا الاعتقاد اتفقت على مواعيد في عيادتي من الساعة الرابعة والربع . . . فإذا المقابلة التي اعتقدت أنها لن تدوم أكثر من ربع ساعة تستغرق ساعة ونصف ساعة و إذا بالحديث كله يدور على الروماتزم وقد ذكر الملك نقطاً خفية لا يحيط بها إلا الذي قرأ عشرة كتب على الأقل في أمراض الروماتزم »

وروى لي سعادة حسن صادق باشا أنه لما عاد إلى مصر من مؤتمر الجيولوجيا الدولي في سنة ١٩٢٥ وتشرف بمقابلة الملك فؤاد دار الحديث على المعدنين اللذين

كانا موضوع بحوث المؤتمر في تلك السنة وهما الفوسفات وكبريتول الحديد وكان حسن باشا قد قدم إلى المؤتمر بحثاً عن الفوسفات في مصر وعن الوجوه التي يكثر استعماله فيها وكم كانت دهشة سعادته عظيمة لما سمع الملك يعدد جميع المناطق التي يوجد فيها فوسفات في العالم

ولكنه لم يكن يدري أن دهشته هذه ستتضاعف بعد لحظة . . .

فإنه ما كاد جلالته ينتهي من تعيين مناطق الفوسفات في العالم حتى قال حسن باشا « وقد وجد كذلك يا مولاي في جزر في جنوب المحيط الهادي »

فقال جلالته على الفور : «ولكن هذا من نوع آخر فنحن نتكلم عن الفوسفات الطبيعي أو الصخري كالفوسفات الموجود عندنا أما الموجود منه في تلك الجزر فيستخرج من طبقات كونتها مخلفات الطيور » .

قال لي حسن باشا : «عند ذلك ذهلت . . . وكيف لا أذهل وأنا أسمع الملك الذي القيت على عاتقه جميع تلك المهام الجسام يحدثني عن شؤون الفوسفات حديث الخبير المتفرغ للجيولوجيا »

واسترسل حسن باشا في الحديث فقال : وكان محمد شعير بك سيتشرف بمقابلة جلالته بعدي ليرفع إليه نسخة من كتابه في تحقيق الشخصية فالتقى بي وأنا خارج من حضرته فطلب مني أن أنتظره لننصرف معاً فانتظرته ولما انتهت مقابلته رأيته مقبلاً نحوي مبهوتاً وهو يقول « أجئت هنا لأقابل ملكاً أم لأقابل أستاذاً في تحقيق الشخصية . . . إنه يا عزيزي يعلم من تحقيق الشخصية أكثر مما تضمنه كتابي »

وحدثني حسن باشا بعد ذلك عن حادث آخر اتفق له مع الملك فؤاد فإنه لما ألف كتاباً في الجيولوجيا قررت وزارة المعارف تدريسه في المدارس الثانوية التمس التشرف بالمقابلة السنية ليرفع نسختين منه إحداهما للملك والأخرى للأمير فاروق

ورأى سعادته أن يرفق نسخة أمير الصعيد بصندوق جمع فيه نماذج من جميع الصخور وحفريات الأرض الشائعة في مصر لكي يسهل على سموه معرفتها والإحاطة بها

قال : « ولما عرضت الصندوق على جلالة الملك فتحه وأخرج النماذج واحداً واحداً وكان عددها أربعين و باحثني فيها كلها فخيل إليَّ في أثناء خمس وأربعين دقيقة أنني جالس مع جيولوجي نتبادل الرأي في فننا »

واستأنف حسن صادق باشا حديثه فقال : « وفي ذات يوم جاءني من أبلغني أن الملك فؤاداً يستغرب كيف أنهم يكتشفون في مصر معدناً يستعمل في صنع الطائرات ولا يعرضون ذلك على مسامعه فاستغربت ذلك بدوري لأننا لم نكن قد اكتشفنا معدناً جديداً ولكني قلت في نفسي إنه لابد أن يكون للموضوع أصل و إلا لماذا يقول الملك أنه معدن يستعمل في صنع الطائرات وأخيراً تذكرت أن بعض الأجانب كانوا يبحثون عن الزمرد في منطقة تقع في جنوب القصير ، والزمرد أساسه معدن « سليكات البريليوم » ، ومن خواص البريليوم أنه أخف من الألمنيوم وأصلب منه ، وهو يدخل فعلا في تكوين بعض المخلوطات المعدنية ، ولكنهم لم يعثروا على زمرد في الحجارة التي حدث الاختبار فيها فبحثنا عندئذ لنعرف هل في هذه الحجارة كمية كافية من البريليوم فكانت النتيجة سلبية . و يظهر أن بعضهم تسرع وأبلغ جلالة الملك شيئاً عن الاتجاه الذي اتجه إليه بحثنا فظن أننا عثرنا على البريليوم فعلا ، وفي هذا الحادث ما يدل على مدى الاهتمام الشديد الذي كان جلالته يتتبع به تقدم العلوم والفنون

وكان جلالته يقابل أكبر عدد من الرجال يتسع الوقت لمقابلتهم . وقال له مرة أحد رجال الحاشية الملكية أن الناس يعجبون كيف أن جلالته لا يضن

بالمقابلة السنية حتى على أصغر الموظفين شأناً كأمناء المحفوظات في القنصليات والمفوضيات مثلا ، فقال جلالته على الفور « إنني أريد أن أرى الذين ستكون في أيديهم الأداة الحكومية عندما يملك فاروق »

* * *

ومع ما رأيناه فيما تقدم من سعة اطلاعه لم يكن يجد على نفسه غضاضة في استشارة الفنيين في الأمور التي لم يسبق له الإلمام بها

كانت الخاصة الملكية تطبع كتباً في أوربا في وقت ما بأمر من جلالته وعلى نفقته الخاصة فرفع إليه أحد رجال الديوان نماذج شتى من الورق ليختار جلالته بعضها ، فقال له : « لست من الذين يرغبون في إقحام أنفسهم في أشياء لا يعرفونها فخذ هذه العينات إلى أمين بك بهجت[1] واطلب رأيه فيها »

* * *

ومن حسن حظ البلاد أن علمه لم يكن مقتصراً على الأمور النظرية ، ولو كان كذلك لكان حلية نفيسة يتحلى بها صاحبها لا أكثر ، ولكن جلالته كان لايفتأ يسعى لتطبيق هذا العلم والتوسل به لنفع بلاده وأمته في جميع نواحي الحياة العامة ، وهذا يسوقنا إلى الكلام عن :

أولاً — الجمعيات العلمية التي أنشأها أو أحياها لما كان أميراً ، و بعد ما أصبح ملكاً

ثانياً — تنشيطه للبحث العلمي

ثالثاً — حبه للمدارس ورعايته لمعاهد العلم

رابعاً — عنايته بالمتاحف والمكتبات

خامساً — إهتمامه بالمؤتمرات

---

(١) مدير المطبعة الأميرية يومئذ

النهضة العلميـــة

أنشأ المغفور له الخديو إسماعيل باشا الجمعية الجغرافية فى سنة ١٨٧٥ فعرفت عهداً زاهراً استمر حتى السنين الأولى من حكم الخديو توفيق باشا ثم لم يلبث نشاطها أن أخذ يفتر تدريجاً فلم تأت سنة ١٩١٤ حتى كانت « جسماً من دون روح » كما قال سكرتيرها العام فشق مصيرها على المغفور له السلطان حسين كامل فخاطب أخاه الأمير أحمد فؤاد في موضوعها وحثه على قبول رئاستها فلم يتردد في القبول بدافع من روحه العلمية المفطورة على حب البناء وبحسن تقديره لما تستطيع هذه المؤسسة العظيمة أن تسديه إلى نهضة البلاد العلمية إذا نظمت إدارتها وأحسن توجيهها . وفي ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٥ صدر مرسوم سلطاني بتعيين سموه رئيساً لها ولما اعتلى العرش أولاها التفاتاً خاصاً وظل يحبوها برعايته و يتتبع عملها بلذة واهتمام كبيرين حتى آخر حياته

* * *

ولم يقصر الأمير فؤاد عنايته على الجمعية الجغرافية وحدها بل شمل بها كذلك معهد الأحياء المائية فى الاسكندرية وهو المعهد الذي كانت فكرة إنشائه قد خطرت له في سنة ١٩١٢ ولم يستطع يومئذ إخراجها إلى خير التنفيذ لصعاب شتى اعترضته فعكف على تذليلها واحدة واحدة إلى أن أتيح له في سنة ١٩١٥ الشروع في تحقيق الفكرة بكيفية جدية فما حلت سنة ١٩١٧ حتى كانت جميع

الأعمال التمهيدية لإنشاء المعهد قد تمت فانتهز فرصة اعتلائه العرش في أواخر تلك السنة وأصدر مرسوماً في ٢٨ يناير سنة ١٩١٨ بانشاء معهد الأحياء المائية رسمياً وشمله بالرعاية السامية

* * *

والأمير أحمد فؤاد هو الذي اقترح إنشاء جمعية الاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع وسعى بنفسه لتنفيذ اقتراحه ووضع أهم أسس البيان الذي تضمن أغراض الجمعية فكان من البديهي أن يواصل تعهدها بعطفه واهتمامه بعد جلوسه على العرش فاستطاعت أن تبني لمكاتبها وقاعاتها دارا فخمة في شارع الملكة نازلي معتمدة على هبات جلالته وقد حرص على أن تعقد لجان بعض المؤتمرات جلساتها في قاعاتها تعزيزاً لمنزلتها وتنويهاً بعظم شأنها

* * *

وليس في مصر بين المثقفين من يجهل قيمة الفائدة العلمية التي يجنيها طلاب العلم بوجود جمعية علمية نافعة كالجمعية الطبية المصرية التي أنشئت في سنة ١٩٠٨ واستطاعت بعد زمن قصير من إنشائها أن تضم إليها عدداً كبيراً من الأطباء المصريين أقبلوا عليها بحمية ونشاط واشتركوا في أعمالها وبحوثها بقدر ما كانت تسمح لهم بذلك أوقاتهم والوسائل العلمية التي لديهم . ثم جاءت الحرب العظمى فاضطرت الجمعية أن تقف أعمالها في أثنائها ولكنها ما لبثت أن عادت إلى استئناف نشاطها بعد عقد الصلح على منوال نال ارتياح الملك فؤاد فتفضل في سنة ١٩٢٤ وشملها برعايته وأصدر مرسوماً ملكياً أجاز لها فيه أن تطلق على نفسها اسم « الجمعية الملكية الطبية المصرية »

* * *

وسلك جلالته المسلك عينه تجاه جمعية الحشرات وقد أنشئت بايعاز منه في

سنة ١٩١٩ فإنه غداة تربعه في دست الملك شمل هذه الجمعية برعايته وعكف على تشجيعها وتعزيز مواردها متوسلا بجميع الوسائل ونفحها من الهبات بما ساعدها على بناء دار كبيرة خاصة بها إلى جانب الدار التى بنتها جمعية الأقتصاد السياسي في شارع الملكة نازلي

وسمعت جلالته مرة يقول إنه بلغه أن كثيرين سألوا في أوقات شتى عن فائدة جمعية كجمعية الحشرات فلو علم السائلون أن خسارة البلاد في محصولاتها الزراعية بفتك الآفات الزراعية لا تقل عن عشرة ملايين جنيه في العام الواحد وأنها قد تجاوز عشرين مليوناً في بعض الأحيان لأدركوا من هذين الرقمين ما يمكن أن تجنيه مصر من جمعية كهذه إذا أدت مهمتها على الوجه المطلوب فلو أضيف إلى ذلك ما نعلمه الآن وما قد نعلمه في المستقبل عن فتك الحشرات بصحة الناس وقواهم لازدادت الحاجة إلى هذه المباحث العلمية جلاء لعيوننا وتبين لنا أننا في أشد افتقار إليها ولا سيما بعد ما أصابت ما أصابته من عناية البلدان الأخرى ، ففي انجلترا مثلا معهد خاص بدرس فعل الحشرات على أنواعها في المحصولات لا في تلك البلاد وحدها بل في سائر أنحاء الامبراطورية البريطانية كذلك، وهذا علاوة على اللذة التي يتمتع بها من يقف جانباً من قواه ووقته على البحث العلمي والإحاطة بطبائع ما حوله من المخلوقات وهي الرغبة الفطرية التي شقت أمام البشر طريق الحضارة ومكنتهم من جمع هذه المعلومات التي يعبر عنها بلفظتي العلوم والمعارف

* * *

وفي ٧ مايو سنة ١٩٣٠ أنشأ الملك فؤاد الجمعية المصرية لأوراق البردي ومنحها ألف جنيه من الجيب الخاص وأهدى إليها مجموعة نفيسة من أوراق البردي لتكون نواة لعملها وبحوثها

قال كبير من رجال القصر الملكي في مقال له عن الملك فؤاد : « وفي سنة ١٩٣٠ إعتراه مرض أليم فلم يحل ذلك دون اهتمامه بانشاء جمعية علم أوراق البردي و إهدائه لها مجموعة من أوراق البردي تبلغ قيمتها نحو ألف جنيه وتبرعه بألف أخرى نقداً لتستعين بها على ضروريات حياتها »(١)

* * *

ورأى الملك فؤاد أن صحاري مصر لا تزال مجهولة مع أنها تؤلف ثلثي مساحة الأراضي المصرية وأنها لا تستغل على الوجه الذي يصح استغلالها به مع أنه لو عني باستثمارها بالوسائل العلمية الحديثة لدرت على البلاد مالاً طائلا ففكر في إنشاء معهد للصحاري يرشد الناس إلى ما يمكن تحقيقه في الصحاري من المشروعات الاقتصادية والعمرانية والاجتماعية فلا يعودون ينظرون إليها كأنها مساحات شاسعة من الفيافي القفار بينما تحوي في جوفها ثروة عظيمة لم تمتد إليها يد الإنسان في العصور الحديثة حتى الآن في حين أن جميع الدلائل تدل على أن الأقدمين كانوا يستثمرون جانباً كبيراً منها ولا سيما الصحراء الغربية فان الآبار وصهاريج الماء الباقية فيها إلى اليوم من عهد الرومان تشهد بأنهم كانوا يزرعون تلك المساحات المترامية الأطراف كما يزرع العرب جزءا صغيراً منها الآن على شاطىء البحر المتوسط من مرسى مطروح إلى السلوم

ولكن الملك فؤاداً انتقل إلى جوار ربه قبل أن يتسنى له افتتاح الدار الفخمة التي بنيت في ضاحية مصر الجديدة لتكون مقراً لهذا المعهد ثم تعاقبت الكوارث فلم تفتح الدار إلى اليوم ولا ينتظر أن تفتح وأن يباشر المعهد مهمته قبل أن تنتهي الحرب وتسترد الصحاري حياتها العادية

---

(١) من مقال عنوانه « جهود الملك فؤاد فى الاصلاح الاجتماعي » بقلم كبير من رجال القصر الملكي بمجلة الهلال مايو سنة ١٩٤٠

وعلمت من بعض الذين وقفوا على رغبات الملك فؤاد في صدد هذا المعهد أنه كان يريد أن يقسم إلى قسمين : القسم الأول يبحث شؤون الصحاري من الوجهة العلمية فيدرس طبقات أرضها وتربتها ومناجمها ووسائل زرعها والمحصولات التي تلائم كل منطقة من مناطقها وسيجهز هذا القسم بالمعامل الكيماوية والتحليلية التي لاغنى له عنها لاستيفاء بحوثه وتجاربه

والقسم الآخر يبحث استغلال الصحاري من الوجهة الاقتصادية أو العمرانية فيرسم طرقها ويبين مسالكها ويوضح ما خفي من أمرها وينظم رحلات إلى داخلها وواحاتها على أن يشترك فيها السياح وأبناء البلاد على السواء . ولا يخفى أن إقليم الصحاري عندنا من أجود الأقاليم هواء وأنفعها للصحة العامة وقد ظهر ذلك جلياً لكل من أتيح له زيارة جزء من أجزائها

وقد نوه معالي أحمد محمد حسنين باشا في كتابه « الصحراء » بما كان لما لقيه من تشجيع ومعاضدة من الملك فؤاد من نصيب وافر في نجاح رحلته الصحراوية المشهورة

ومما لا يعرفه كثيرون أنه ما كاد معاليه يعود من تلك الرحلة حتى عُين سكرتيراً للمفوضية المصرية في واشنطن ولكن الملك فؤاداً أبى عليه أن يسافر قبل أن يلقي محاضرة عن رحلته وقبل أن يكتب كتابه عنها

وتفضل جلالته تقديراً منه للبحث العلمي ورغبة في حث الشباب المصري على سلوك هذا السبيل فشهد الحفلة التي القى فيها الشاب المصري « أحمد محمد حسنين افندي » محاضرته . ولما انتهى من إلقائها استقبله الملك في المقصورة الملكية وهنأه بما وفق إليه وأبلغه إنعامه عليه برتبة البكوية

وقوبل يومئذ هذا العطف باغتباط عظيم من المتعلمين جميعاً للروح التي انطوى عليها فقد رأوا فيه نصراً للعلم وتأييداً للقائمين بأمره وتشديداً لعزيمة كل

باحث محقق يعمل عمله بسكينة شأن العالم الحقيقي الذي يجد مكافأته ولذته في عمله ولا يعبأ كثيراً بتهليل الجماهير، فهؤلاء العاملون كانوا يجدون من تقدير الملك فؤاد وتنشيطه لسعيهم ما يزيدهم همة ويقوي رغبتهم في هذه المهمة الجليلة

* * *

وقد تجلى حرص الملك فؤاد على تشجيع البحث العلمي منذما كان أميراً، والجمعيات التي أنشأها في ذلك العهد والتي جدد حياتها أكبر دليل على ذلك، وإذا أضفنا إليها جمعية ترقية اللغة العربية وقد أنشأها في سنة ١٩٠٨ تألف منها كلها مظهر جميل للنهضة العلمية التي نهضتها البلاد على يده وكأنما أراد الله أن يكلل مجهوده في سبيل اللغة العربية بما يزيده سناء فهيأ له أن يصدر في شهر ديسمبر سنه ١٩٣٣ مرسوم المجمع اللغوي

قال لي يوماً الدكتور حافظ عفيفي باشا « إن العمل العظيم الذي عمله الملك فؤاد بإنشاء تلك الجمعيات لا يقدره حق قدره إلا من يحيط بجهودها ولا شك في أنه لو تيسر لجلالته أن ينفذ كل ما كان يفكر فيه لتغير وجه مصر تغيراً تاماً في عهده »

* * *

ولا جدال في أنه لولا هبات جلالته المستمرة للجمعية الجغرافية لما استطاعت أن تحقق ما حققته وأن تخرج للعلم الأسفار النفيسة التي أشرف على إعدادها وطبعها ولا سيما ما يتعلق منها بتاريخ ساكن الجنان المغفور له محمد علي باشا الكبير فإن المؤرخين الذين كتبوا فى الماضي عن حوادث ذلك العهد لم يتمكنوا من الإحاطة بجميع ظروفها وملابساتها لأن هناك نواحي شتى كانت تفتقر إلى ضوء جديد يلقي شعاعاً من الحقيقة على الغامض من أسرارها والمجهول من تفاصيلها

ورأى الملك فؤاد أن هذا النقص في تاريخ مصر الحديث لا يسد إلا إذا وضعت جميع الوثائق السياسية المتعلقة بذلك العهد تحت تصرف الباحثين والمؤرخين وفي مقدمة تلك الوثائق ما هو موجود منها في محفوظات وزارات الخارجية في باريس ولندن وفينا وأثينا وروما وسان بطرسبورج (لنينغراد الآن) وغيرها وهي التقارير التي كان قناصل الدول في مصر في عهد محمد علي باشا يرفعونها إلى حكوماتهم عن أحوال هذه البلاد أو عن المخاطبات التي تدور بينهم وبين محمد علي باشا في المسائل السياسية العامة

لذلك قرر جلالته وجوب جمع هذه الوثائق والمستندات وتنسيقها وتبويبها وطبعها ليستعين بها مؤرخو مصر في المستقبل فيوفر عليهم مشقة ونفقات لا قبل لهم باحتمالها . ومن بواعث السرور والاغتباط أن جلالته وجد العلماء والباحثين الذين يأخذون هذا العمل الدقيق على عاتقهم وكان من نتيجة استقصائهم ونشاطهم أن ظهر حتى الآن ثلاثون مجلداً من تلك الوثائق والمستندات الرسمية وقد نقلوها من ملفات وزارات الخارجية في البلدان التي وردت أسماؤها آنفاً بعدما نالوا إذنا خاصاً في ذلك من حكومات تلك البلدان وعنيت بطبعها الجمعية الجغرافية الملكية في مصر بمؤازرة جلالة الملك ورعايته والمبلغ الكبير الذي دفعه جلالته لنفقات هذه المطبوعات النفيسة ولا يقل عن مئة ألف وعشرين ألف جنيه

* * *

ووصف كبير من رجال القصر الملكي ما كان الملك فؤاد يعلقه من شأن عظيم على تلك المطبوعات وعلى تنظيم قسم المحفوظات التاريخية في القصر فقال :

« اشتد المرض بجلالة الملك الراحل في صيف سنة ١٩٣٤ وتحرجت السياسة بين مصر وانجلترا وكان المندوب السامي مسافراً بالاجازة فانتدبت وزارة الخارجية

البريطانية المستر بترسون رئيس القسم المصري فيها إذ ذاك ليقوم مقامه وعين صاحب الدولة أحمد زيور باشا رئيساً للديوان مما نذكره جميعاً من جسام الحوادث في ذلك العهد . وكنت قبل ذلك قد مضيت مدة طويلة مريضاً لم أستطع خلالها أن أتشرف بالمقابلة الملكية إلى أن كان يوم ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣٤ ففي ذلك اليوم دعيت إلى قصر المنتزه العامر فألفيت جلالة الملك رحمه الله في قاعة الاستقبال في دائرة الحرم وهو ضعيف نحيل شاحب اللون مما عاناه من الآلام وما مثلت بين يديه وهنأته بشفائه وسلامته حتى ابتدرني سائلاً « ما حال المحفوظات التاريخية ؟ وأي شوط قطعتم في ترتيبها ؟ وهل من جديد في المؤلفات التي تطبع الآن هنا وفي أوربا ؟ وما حال الجمعية الجغرافية وأخواتها ؟ لقد أقعدني المرض طول المدة الماضية ولكني لم أفتأ أفكر في أعمالنا » . وطلب مني أن أوافيه عاجلاً بمذكرة عما تم في كل هذا . فأطعت الأمر وانصرفت . وكان المغفور له توفيق نسيم باشا فى مكتب التشريفات ينتظر الأمر بتأليف الوزارة[1] »

* * *

ولولا الملك فؤاد لما كان معهد فؤاد للموسيقى الشرقية قد أنشىء ولما كانت له دار فخمة كالدار التي بنيت له في شارع الملكة نازلي

فقد أصيبت الموسيقى الشرقية بجمود لا يطابق ما يرى في مصر وسواها من بلدان الشرق من رغبة في السير إلى الأمام . و بعد ما كثر اتصال الشرق بالغرب – واجهت موسيقانا الشرقية الموسيقى الغربية بالغة من الإتقان الفني والآلي مبلغاً عظيماً ، وحيث أننا نتعلم لغات الإفرنج وآدابهم ونسيح في بلدانهم ونشهد تمثيلهم ونسمع موسيقاهم في دور التمثيل والسينما فقد كان هناك خوف على

---

(١) من مقال عنوانه « جهود الملك فؤاد في الاصلاح الاجتماعي » بقلم كبير من رجال القصر الملكي — مجلة الهلال عدد مايو سنه ١٩٤٠

الموسيقى الشرقية من أن تضعف — وهو خوف في محله — فبعث ذلك الملك فؤاد على تأييد معهد الموسيقى الشرقي إلى أن تمت له هذه النهضة . وتفضل جلالته فشرف حفلة افتتاح داره الجديدة في شهر ديسمبر سنة ١٩٢٩ ومنحه في تلك المناسبة ألف جنيه

* * *

وحتى لما كان جلالته يسافر إلى أوربا في زيارات رسمية كان دائم التفكير في كل ما تقدم

« سافر رحمه الله وطيب ثراه إلى أوربا في سنة ١٩٢٧ في زيارات رسمية إلى بعض الدول فكان يجمع إلى مهمته الرسمية حرصه على أن لا تفوته فرصة تتاح للتردد على متحف فني أو معرض صناعي عله يجد فيه ما يستفيد منه ويفيد به مصر وكان في الوقت عينه يتتبع عن كثب مفاوضات المغفور له ثروت باشا مع السر أوستن تشمبرلن ويمد وزيره الأول بنصائحه الغالية وإرشاداته الثمينة . وكان في تلك السنة في فيشي يتصل بالمستشرق الشهير البارون دى لنجيه ويفاوضه في عقد مؤتمر للموسيقى العربية في القاهرة . كما أنه في تلك السنة عينها اتفق مع المسيو جبرائيل هانتو على وضع تاريخ شامل لمصر من أقدم العصور إلى وقتنا الحاضر

« وفي سنة ١٩٢٩ سافر للمرة الثانية إلى أوربا فكان شأنه رحمه الله هذه المرة شأنه في المرة السابقة ورأيته عقب وصوله إلى جنوى من الإسكندرية يهتم بتفاصيل الزيارات الرسمية التي كان ذاهباً إليها في ألمانيا وتشكوسلوفاكيا وسويسرا وفي الوقت نفسه يطالع باهتمام تقرير المسيو كلاباريد عما شاهده في مصر خاصاً بالتعليم وأساليبه . فلما حط رحاله في انجلترا للاستفسار عن صحة الملك جورج الخامس وكان مريضاً إذ ذاك وكان رفعة محمد محمود باشا يفاوض المستر

هندرسون في شأن المعاهدة بين مصر وانجلترا أخذ جلالته يتتبع سير المفاوضات ويقابل رجال السياسة الإنجليز ولم يتوان عن زيارة مرافق لندن ومعارضها بل انتهز فرصة وجوده هناك للاتفاق مع البروفسور دودويل على تأليف كتاب في تاريخ مصر في عهد المغفور له محمد علي باشا الكبير ودعاه إلى زيارة مصر ليطلع على كنوز محفوظاتها ويستوعبها فيما يشيد بمجد مصر ويظهر عظمتها للملأ أجمع »[1]

(١) من مقال عنوانه « جهود الملك فؤاد في الاصلاح الاجتماعي » بقلم كبير من رجال القصر الملكي — مجلة الهلال عدد مايو سنة ١٩٤٠